

## الطائفة اليهودية في السودان في القرنين التاسع عشر والعشرين :

بقلم البروفسور: جبرائيل واربورج

مؤجرة حتى عام ١٩٢٦ . وفي فترة رئاسة يوسف بورتي للطائفة (١٩٢١-١٩٢٦) تم شراء قطعة أرض صغيرة في منطقة فيكتوريا وأقيم عليها معبدا واسعا . وفي أعوام الثلاثينات والأربعينات وصلت الطائفة اليهودية في حجمها الى الذروة وتراوح تعدادها بين ٨٠٠-١٠٠٠ فردا . وذلك مع انضمام شباب يهود والذين هاجروا في الأصل من مصر وسكنوا في السودان حيث عرض عليهم هناك وظائف حكومية وغيرها ، وامتلأ المعبد عن آخره . فقد وصل اليهود الى الخرطوم من مناطق السودان في " أعياد رأس السنة وعيد الغفران " وهكذا تحول المعبد الى مركز طائفي وديني يهودي .

كذلك فقد تأسس في الخرطوم مركزا يهوديا للترفيه والرياضة من قبل رابطة " مكابي " وفي نفس الفترة أي في الثلاثينات والأربعينات ، تمتع اليهود بالهدوء والازدهار ، وتولوا مناصب كبيرة في عدة مجالات . ومن بينها يذكر ملكا مدير خدمات البريد الخديوية وإدارة البريد الحكومية والبنك الأهلي المصري وإدارة الجوازات السودانية وغيرها . بالإضافة لذلك كان هناك يهود أداروا أو مثلوا شركات تجارية سودانية مصرية واوروبية وكذلك ميزوا كأطباء ومحامين ومتخصصوا بصريات ومحاضرون جامعيون .

وكان الدكتور سليمان بسيوني نجل بن تسيون كوشطي جراحا كبيرا في مستشفى الخرطوم ومحاضرا في مدرسة الطب بالجامعة وأيضا مديروا قاعة جوردون الموسيقية للخرطوم كانوا يهودا من اللاجئيين الهاربين من ألمانيا النازية . وقد كان الأمر المثير للإهتمام

في البداية الى سويسرا وبعد ذلك الى الولايات المتحدة . وكان أبوه الحاخام سلمون ملكا وهو الحاخام الأول للسودان من عام ١٩٠٦ وحتى ١٩٤٩ وقد ترك خلفه كتبيا بخط اليد باللغة العبرية ، عن التاريخ القديم لليهود السودان والذي ضاع لسؤ الحظ . ولكن المؤلف ايلي ملكا نجح في أن يجمع معلومات عن كتابه بواسطة حوارات مع زعماء الطائفة اليهودية بالسودان سابقا ، والتي قام بها في أمريكا وإنجلترا وإسرائيل وسويسرا ، وعلى قدر ما استقى من ذكرياته هو نفسه .

وبعد الاحتلال الإنجليزي-المصري للسودان (١٨٩٦-١٨٩٨) ، عادت الأسر اليهودية القليلة والتي كانت قد أسلمت في الفترة المهدية الى أحضان اليهودية وأولئك الذين تزوجوا من نساء لسن يهوديات قاموا بتهود نساءهم وأبنائهم . وقد شد واحد فقط عنهم وهو سليمان مندليل والذي ظل على الديانة الاسلامية . وحسب أقوال ملكا فقد أصبح صحفيا سودانيا بارزا . وقد انضم الى " يهود المهدية " كما أطلقوا عليهم في السودان ، بعد الاحتلال الإنجليزي-المصري أسر يهودية إضافية والتي وصلت في الأساس من مصر ومن فلسطين وهكذا تم وضع حجر الأساس للطائفة اليهودية في السودان . وفي عام ١٩٠٨ تم إختيار بسيوني رئيسا للطائفة اليهودية طوال حياته حيث توفي في عام ١٩١٧ . وقد عاشت أسرة بسيوني في السودان ، ولعب أبنائها دورا هاما في الحياة التعليمية والثقافية لتلك الدولة ، حتى بداية السبعينات عندما انتهت الطائفة من الوجود . وفي السنوات الأولى لم يكن هناك معبد ، وكانت صلوات اليهود في وحدات سكنية

عندما أعلن محمد أحمد بن عبدالله عن نفسه كمهدي للسودان في يونيو عام ١٨٨١ ، كان بها وقتذاك ثمانية أسر يهودية فقط والتي سكنت كلها في أم درمان ، وكلها باستثناء واحدة من أصل سفارادي . وكانت أشهر تلك الأسر هي أسرة بن تسيون كوشطي ابن الحاخام مائير باخور كوشطي من الخليل والذي أشهر إسلامه خلال الفترة المهدية مع سجناء آخرين مسيحيين ويهود . وقد ذكر ريتشارد هيل في كتابه " معجم السودان البيوجرافي " أن بن تسيون الذي عرف باسم بسيوني بعد أن أشهر إسلامه تولى عدة مهام سرية من قبل الخليفة عبدالله وكان واحدا من مستشاريه في الشؤون المالية . ولم يكن ذلك ظاهرة فريدة حيث أن عددا من المسيحيين الأوروبيين الذي خدموا في السودان التركية-المصرية قد غيروا ديانتهم الى الدين الاسلامي وأعلنوا ولائهم للدولة المهدية . وحسب معلوماتنا فقد كانت تلك هي بداية الطائفة اليهودية الصغيرة في السودان . فلا توجد في حوزتنا تقريبا مصادر مكتوبة عن تلك الطائفة ، حيث أنه على خلاف الطوائف اليهودية الأخرى في الدول الاسلامية فإنه لم يتم عمل بحث تاريخها . وكل ما يوجد لدينا هو معلومات ضئيلة عن الأسر الأكثر شهرة ليهود السودان ، مثل أسرة بسيوني . وقد قدمت ورقة عن تلك الأسرة قبل سنتين في مؤتمر من قبل رابطة الدراسات السودانية ومقابل ذلك ألف الأستاذ ايلي ملكا كتابا نشر في عام ١٩٩٧ عن دار نشر جامعة سيرايوز وعنوانه " بنو يعقوب في أرض المهدي : يهود السودان وقد ولد ملكا في أم درمان عام ١٩٠٩ وعاش هناك حتى هاجر عام ١٩٦٤ ،

بوجه خاص هو نشأة رجال الأعمال اليهود السودانيين أمثال نسيم جاعون وليثون تمام وأفراد أسرة دويك وملكا والذين بدأوا حياتهم العملية في السودان وبمعايير متواضعة ثم حظوا فيما بعد بمجد عالمي كرجال أعمال وكمساهمين . لقد بدأ اليهود في ترك السودان بعد أن حصلت على استقلالها عام ١٩٥٦ . وحسب ما ذكر ملكا فقد كان ذلك أساسا نتيجة لحرب السويس عام ١٩٥٦ والنزاع العربي الإسرائيلي وليس بالضرورة نتيجة لسياسة حكومات السودان المستقلة والتي لم تكشف عن عدااء خاص إزاء اليهود . وكان آخر رئيس للطائفة اليهودية هو إسحق موسى اليني ، من مواليد السودان ابن موسى إسرائيل العين ، وكان قد أختير لذلك المنصب عام ١٩٦٥ وعمل فيه حتى عام ١٩٧٠ حيث هاجر لإنجلترا في أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧ وبذلك توقفت الطائفة اليهودية للسودان عن الوجود .

إن قصة ملكا مخصصة لتاريخه وتاريخ أسرته . وكما هو مذكور أعلاه ، وقد ولد إيلي ملكا عام ١٩٠٩ لوالدين هما حنة وشلومو (سلمون) ملكا . وكان شلومو نفسه قد ولد في المغرب عام ١٨٧٨ وهاجر لفلسطين في العشرينات . وقد درس في صفد وفي طبرية والتحق هناك بالحاخامية . وفي عام ١٩٠٦ أرسل لأم درمان بواسطة الحاخام إلياهو حزان الحاخام الأكبر للإسكندرية . وقد نشر الحاخام سلمون بشكل منتظم خطبه الدينية في الجريدة اليهودية " الشمس " التي كانت تصدر بالعربية في القاهرة وبعد ذلك تم جمعها في كتاب صدر في القاهرة عام ١٩٤٩ ، كان عنوانه : " المختار في تفسير

التوراة " بقلم الحاخام سلمون ملكا .

وقد ولد إيلي ملكا وتلقى تعليمه في أم درمان . وجدير بالذكر انه في البداية درس في مدرسة تبشيرية للكاثوليك ، ثم أكمل دراسته في مدرسة ثانوية خاصة بالقاهرة . أما تعليمه الجامعي فقد تلقاه في جامعتي الخرطوم وأكسفورد ببريطانيا . فقد كانت ثقافته إنجليزية - مسيحية . وليس مفاجئا انه انضم الى مركز حضارة السودان والذي أقامه البريطانيون . على أية حال فقد كان يهوديا محافظا وزعيما للطائفة اليهودية سواء داخل السودان أو في خارجها . وقد بدأت أعماله التجارية في عام ١٩٢٨ وعرض في السودان وفي الدول المجاورة (إثيوبيا - إرتريا - جيبوتي) تشكيلة متنوعة من الشركات التجارية ، ومن بينها تسويق القطن من مزارع سيد عبد الرحمن المهدي في جزيرة أبا في النيل الأزرق .

وأقامت الطائفة اليهودية في السودان علاقات وطيدة مع الطائفة اليهودية بمصر . وقد كان ذلك طبيعيا إذ أنه كان للكثيرين من يهود السودان علاقات أسرية بالقاهرة والأسكندرية .

وكان للملكا علاقات قريبة مع حاييم ناحوم أفندي الحاخام الكبير لمصر والسودان في الأعوام ١٩٢٥-١٩٦٠ .

أما طبقة الأشراف اليهودية في السودان فقد كان لها علاقات قوية مع أسر قطاوي وموصيري وهما من الأسر المركزية والمتزعمة ليهود مصر حتى عام ١٩٤٦ . ويمكننا أخذ الانطباع من أن ملكا وزعماء آخرين للطائفة اليهودية قد مارسوا بصفة عامة حياة سعيدة ومزدهرة في السودان . بجوار جيرانهم

السودانيين الذين تصادقوا معهم وكثير من البارزين من يهود السودان ، مثل الناجحين في أوساط أبناء طوائف أقلية أخرى ، كانوا يعيشون في الأحياء الراقية للخرطوم وكانوا يمتلكون فيلات فاخرة وكانوا يترددون دائما على النوادي التي في أحيائهم وللكثير منهم كان هناك أصدقاء سودانيين مسلمين . وعلى الرغم من أنه مع بداية السبعينات قد ترك " بنو يعقوب في أرض المهدي " السودان وتناثروا في أوروبا وأمريكا وإسرائيل إلا أن الكثيرين منهم واصلوا تطوير علاقات الصداقة مع السودانيين في بلادهم الجديدة .

لقد وافانا إيلي ملكا الذي أنهى كتابة مذكراته عندما وصل لعمر السابعة والثمانين بتقييم جدير بالذكر عن طائفة يهودية صغيرة ولكن مزدهرة والتي توقفت عن الوجود .

ولكن كما يعترف المؤلف فإن كتابه لا يمثل تاريخا للسودان خلال تلك الأعوام أو تاريخ لليهود فيها بل يمثل مصدرا ذو قيمة كبيرة للمؤرخين الذين يتناولون الطوائف اليهودية في الدول الإسلامية ولأولئك الذين يهتمون بدور ومصير الأقليات غير المسلمة تحت حكم إسلامي .

إن تاريخ الطائفة اليهودية الصغيرة في السودان ما زال حتى الآن يحتاج الى البحث والكتابة .